

التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية بالجزائر: مسارات "حضرنة" الريف و"تريف" المدينة

(1) فريد مرحوم

(2) سارة بومزواد

(3) نوال عليوة

ملخص

تُعِيد هذه الورقة قراءة تجربة القرى الزراعية الاشتراكية في الجزائر في سبعينيات القرن الماضي والتي كانت الثورة الزراعية إحدى ركائزها. وبعد أكثر من خمسين سنة من ذلك، لا تزال هذه القرى حاضرة في المخيال الجماعي للسكان، غير أنّ وجودها الفيزيقي ليس محدّدا دائما بشكل واضح. يوضح هذا المقال كيف فرض التوسّع الحضري منطلقا آخر لتداخل الحدود بين ملامح المدينة ورمزيات الريف مع إبراز المجالات المركبة و/أو متباينة التي تجمع بينهما. تطرح هذه الوضعية اليوم تساؤلات عن طبيعة التحوّلات التي أنتجها هذا التوسّع وأهمها السيرورات التي تحكّمت في حضرنة هذه القرى أو تريفها

تَهْتَم هذه الدراسة بالطرح الذي يعتبر المدينة مؤسسة لتحديث المجتمع مفهوم "تريف المدينة" بوصفها "وضعا حضريا غير مكتمل" أو "شبه حضري" أو "مجال حضري متخلف". ونعتبر أنّ البراديغم الثقافي لا يمكن من فهم الديناميات التي أنتجها التوسّع الحضري،

(1) Université Abou Bekr Belkaid, 13 000, Tlemcen, Algérie.

N° ORCID : 0009-0008-7316-0829

(2) Université Abderrahmane-Mira, 06 000, Béjaïa, Algérie.

N° ORCID : 0009-0001-1960-4889

(3) Université Mohammed Seddik BenYahia, 18 000, Jijel, Algérie.

N° ORCID : 0009-0006-7725-2515

ونفترض أنّ إعتقاد مقارنة أخرى تنظر "للتريف" على أنّه عملية حضرنة تدريجية وفق نموذجين هما : حضرنة مدمجة نحو الخارج وحضرنة منبعثة من الداخل.

الكلمات المفتاحية: الريف - المدينة - الحضرنة - التريف - التوسع الحضري - القرى الاشتراكية.

Résumé

Cette étude propose un retour à l'expérience des villages socialistes en Algérie des années 1970. Ces villages demeurent présents dans l'imaginaire collectif des populations, alors même qu'ils ne sont pas toujours aisément identifiables sur le terrain. L'expansion urbaine y a imposé une autre logique d'imbrication entre ruralité et urbanité, donnant naissance à des espaces composites, hétérogènes, où se superposent des formes urbaines et des référents symboliques ruraux. Notre article interroge la nature des transformations induites par cette expansion : s'agit-il de villages progressivement urbanisés, ou bien de villes rurbanisées ? Faire de la ville l'outil par excellence de la modernisation de la société a favorisé l'usage de la notion de rurbanisation pour qualifier une condition urbaine inachevée, semi-urbaine, voire « sous-urbaine ». Or, un tel paradigme ne permet pas d'appréhender pleinement les dynamiques complexes produites par l'expansion urbaine. Dès lors, il est nécessaire d'adopter une approche alternative : la rurbanisation est une urbanisation en marche selon deux modèles : un modèle d'intégration endogène et un modèle d'implosion ou d'émergence interne.

Mots-clés : Campagne - Ville - Urbanisation - Rurbanisation - Expansion urbaine - Villages socialistes.

Abstract

This study offers a renewed interpretation of the socialist agricultural villages experience in Algeria during the 1970s, for which the agrarian revolution was one of the cornerstones. More than fifty years on, these villages remain present in the collective imaginary of local populations, even though they are not always easily identifiable on the ground. Urban expansion has introduced a new logic of interweaving between rurality and urbanity, giving rise to composite and heterogeneous spaces where urban forms overlap with rural symbolic references. This situation now raises questions about the nature of the transformations produced by this expansion: are these villages undergoing progressive urbanization, or are they becoming "ruralized" towns? Conceiving the city as the privileged instrument of social modernization has encouraged the use of the notion of "ruralization" to characterize an unfinished urban condition, semi-urban, or even "sub-urban". Yet, such a culturalist paradigm does not allow for a full understanding of the complex dynamics generated by

urban expansion, it is therefore necessary to adopt an alternative approach: ruralization should be understood as an urbanization in progress unfolding according to two models: one of exogenous integration and one of internal implosion or endogenous emergence.

Keywords: Countryside - City - Urbanization - Ruralization - Urban expansion - Socialist villages.

ليس من السهل اليوم، الاشتغال على موضوع القرى الاشتراكية الزراعية بعد القطيعة التي عرفها منذ تسعينات القرن الماضي؛ ولعل أولى الصعوبات تتعلق بالوصول إلى المعطيات الميدانية المحيطة والأرشيف المتعلق بها والذي يزيد عمره عن الخمسين سنة. لقد أنجز باحثون جزائريون في سبعينات وثمانينات القرن الماضي معرفة سوسيولوجية هامة وقيّمة، ولكنها لا تعفي الباحثين اليوم من ضرورة إنجاز تحقيقات ميدانية جادة ومعقدة للوقوف على واقع هذه المجالات التي تغيرت شكلا ومضمونا. لقد "شغلت جزائر الثورة الزراعية والتسيير الاشتراكي للمؤسسات اهتمام المختصين لأكثر من عقدين من الزمن (1970-1980)، عندما كانت كل العلوم الاجتماعية منغمسة فيما سمي بسوسيولوجيا التنمية، حيث تهافتت الطروحات على تبرير الاشتراكية كخيار سياسي في مسعى جعلها قابلة للتطبيق على أرض الواقع" (Moussaoui, 2001, p. 53). ولكن الاهتمامات البحثية بدأت تتجه نحو "جزائر أخرى"، انبثقت بعد أحداث أكتوبر 1988 (Boukobza, 1991)، ودوامه العنف خلال تسعينات القرن الماضي (مرحوم، 2018)، اللذين تزامنا مع انهيار المعسكر الاشتراكي، والذي قابله في الجزائر الشروع في إصلاحات عميقة على مستوى التوجهات الإيديولوجية للدولة حيث أُقر من خلالها التحول من الاشتراكية إلى اقتصاد السوق، ومن الأحادية إلى التعددية الحزبية والإعلامية في دستور فبراير 1989. وقد نتج عن ذلك تغيرا براديغميا أو نقلة نوعية عبّر عنها علي الكنز سنة 1991 بعنوان ذي دلالة قوية: "من الإعجاب بالدولة

إلى اكتشاف الممارسة الاجتماعية"، لأن المجتمع بدأ يفرض نفسه كفاعل اجتماعي يحتاج الدراسة والتحليل (الكنز، 2001)؛ وهو ما جسده مدني صفر

زيتون سنة 2004 عندما رافع لإخراج السوسيولوجيا الحضرية من هيمنة البراديجم الثقافي (Safar-Zitoun, 2008).

حظيت القرى الاشتراكية الزراعية خلال حقبة كاملة باهتمام بحثي مكثف، ولا زالت إلى اليوم تطرح تساؤلات جديدة تتطلب مقاربات نظرية ومنهجية مختلفة ومتعددة التخصصات بالنظر إلى التغيرات التي عرفت هذه الفضاءات، وعرفها العالم الريفي عموما من خلال ظاهرة التوسع الحضري¹ الذي يشكل مفهوما بنيويا ملازما لمتطلبات التنمية، وينبثق استجابة للتزايد المطرد في تعداد الساكنة موازاة مع تنامي النشاط الاقتصادي وما يتبعه من ارتفاع الطلب على السلع والخدمات، لا سيما ما تعلّق منها بالتربية والتكوين والصحة والنقل، بالإضافة إلى كل ما ينتج عن تقسيم العمل الاجتماعي الذي يفرضه العيش على نمط الحياة الحضرية.

في هذا السياق، شهدت المدن في الجزائر مع نهاية الفترة الاستعمارية وخلال السنوات الأولى للاستقلال تحولات معتبرة، جعلت منها "مزيجا بين نتاج السياسات العمومية والتحضّر أو التمدن العشوائي... وشكّلت في تفردّها وعمقها التاريخيين نسيجا متراكبا من المدينة" (بليقيدوم، 2021، ص. 7)، حيث تتجاوز في مجال حضري واحد المدينة العتيقة والمدينة الكولونيالية ومدينة ما بعد الاستقلال².

تمثّل القرى الاشتراكية الزراعية، موضوع هذه الورقة، سياقاً لمقاربة تشكّل علاقات "جديدة" بين الريف والمدينة بوصفها حالة مفصلية تسهم في فهم تفاعلات هذين المجالين ضمن مسارات التوسّع الحضري. فهي، أي القرى الاشتراكية الزراعية، نقطة تقاطع بين المجالين الريفي والحضري أولا، وهي مرآة

¹ حول مفهوم التوسّع الحضري، أنظر العدد الموضوعاتي من مجلة إنسانيات الموسم: "التوسّعات العمرانية والتّحدّيات البيئية"، العدد 108، المجلد 29، سبتمبر 2025.

² توسّعت كثير من المدن الجزائرية عبر ما يسمى "المدن الجديدة" للإشارة إلى الأجزاء التي بنيت أو سوف تبنى في إطار التوسع الحضري (العمراني) تبعا لخطط ورهانات الدولة الوطنية المنبثقة في ستينات القرن الماضي، الطامحة إلى تحديث المجتمع وتجاوز آثار الحقبة الاستعمارية.

عاكسة لتأثير الخيارات السياسية والإيديولوجية على إعادة تشكيل الفضاء الاجتماعي داخلها وفق نمط سكني جديد، إذ تعرضت لأنماط توسّع مختلفة أدّت إلى تغيّر هوياتها المجالية والاجتماعية. وإذا كانت هذه القرى لا تزال إلى اليوم موجودة على لافتات التشوير الطرقي وفي المخيال الجماعي للفاعلين الذين عايشوا تلك المرحلة، فإنّ حدودها الجغرافية على الأرض ليست دائما محدّدة بشكل واضح.

تظهر حصيلة بعض القراءات حول موضوع القرى الاشتراكية الزراعية³ أنّ هذا المشروع التنموي تتكامل فيه رؤيتان: ترى الأولى أنّ تحديث المجتمع الجزائري يمرّ حتما عبر نقله من نمط الريف إلى نمط المدينة بما توقّره هذه الأخيرة من فرص للتعليم والخدمات الصحية والاجتماعية ومناصب الشغل لجميع الجزائريين...، ورؤية ثانية -ذات بعد استدراكي- ترى أنّه لا يجب أن ينتقل جميع الريفيين إلى المدينة، بل يجب أن يبقى الريف ريفاً، والمدينة مدينة تجنبا لتفاقم "تبعات" النزوح الريفي السابق (Etienne, 1972, p. 35).⁴ تجدر الإشارة

³ أسهم الباحثون الجزائريون في تحليل موضوع الثورة الزراعية والقرى الاشتراكية الزراعية خلال السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، نذكر منهم: مصطفى الأشرف (1972)، مدني صفر-زيتون (1976)، نذير معروف (1980)، علي الكثر (تحت اسم مستعار: الطاهر بن حورية) (1980)، جعفر لسبط (1984)، عبد الكريم العايدي (1997، 2021)، حجيج الجنيد (2002) ... إلخ. للاستزادة، يمكن معاينة قائمة المراجع في مقالين قمنا بنشرهما مع الزميل مهدي سويح في إطار مشروع بحث مؤسساتي CRASC، ما بين 2018-2019: (Marhoum & Souiah, 2018) و (Souiah & Marhoum, 2018).

⁴ نشير هنا إلى أن هاتين الرؤيتين تتجلبان في الخطاب السياسي حول مشروع التنمية الوطنية لتلك الفترة، حيث أورد Bruno Etienne مقاطع من خطاب الرئيس هواري بومدين، بمناسبة افتتاح أشغال الملتقى الوطني حول السكن الريفي المنعقد في 20 مارس 1973، ونشر في جريدة المجاهد، ليوم 21 مارس 1973، بحيث يظهر أن تنمية الريف هي من أجل حماية المدينة: "الأفضل لنا هو تثبيت السكان الريفيين في القرى الاشتراكية الزراعية، أحسن من أن نتركهم يغزوا المدن [...] نحن نُقدّر، صادقين في قناعاتنا، أنه من المهم جدا أن نتوجه إلى الأرياف لدراسة مشاكلها في عين المكان، من أجل تجنب نزوح جديد نحو المدن في السنوات القادمة". [لم نفهم كيف استشهد الكاتب بخطاب الرئيس هواري بومدين في سنة 1973، على الرغم من أن مقاله نشر في المجلد 11، من مجلة *Annuaire de l'Afrique du Nord*، في العام 1972.

إلى أن التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية، باعتباره تحوّلًا تاريخيًا جرى في فترة طويلة نسبيًا، قد فرض منطوقًا آخر لتداخل الحدود نتج عنه مجالات مركّبة أو متباينة تحمل ملامح المدينة ورمزيات الريف. بناءً على هذا، واستنادًا إلى المعايينات الميدانية⁵ التي نستعرض نتائجها في هذا المقال، نتساءل عن طبيعة التحوّلات التي أنتجها التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية بغية فهم سياقات حضرتهما أو تريفهما.

من البراديغم الثقافي إلى فرضية المجالات المركبة

ربما يجب الإقرار من البداية أن الالتزام المنهجي الذي يختص به كل علم أو تخصص علمي لا يكفي وحده لإنتاج معرفة علمية حول ظاهرة ما، ما لم يُطعّم بمعطيات التحقيقات الميدانية التي تكشف عما يظهر وما لا يظهر في ممارسات الفاعلين الاجتماعيين...، أي ذلك الضرب من "السوسيولوجيا الذي يعرف الظواهر بما هي، وبما ليست هي، في آن واحد". لقد أشار بيير بورديو قبلًا إلى أن "المختصين في كل علم يميلون إلى صناعة إيديولوجية إزاء العلوم الأخرى، تخص علاقات هذه الأخيرة بعلمهم الخاص، بحيث يعتقد كل واحد ببنية حسنة بأن منهجه هو الأحسن [...] وهو الأكثر ملاءمة [...] بحيث يجب أن يُتَّبَع ويُعتمد في جميع المجالات (Bourdieu, 1963, p. 9)". من جهته يقر كلود برنارد أن "المنهج وحده لا يلد شيئًا، لأنه لن يعطي أفكارًا جديدة وخصبة لمن لا يملكونها" (Bernard, 1865, p. 52)، وعليه فإن "البحث الميداني ليس مجرد شكل للميكانيكا الاجتماعية تقتصر على التقاط خطاب الآخر وكأنه مجرد ناقل للمعطيات دون أن نتسلل بالسؤال إلى عمق تعقيد تركيبته وتفرد التاريخي" (Mebtoul, 2015, p. 11).

⁵ شارك المؤلف الأول في مشروع بحث مؤسسي بالمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية (CRASC) بعنوان: "الحضرة الريفية: بخصوص تطور القرى الاشتراكية" في الفترة 2016-2019. ويعتبر هذا المشروع البحثي بمثابة إحياء للاهتمام بموضوع القرى الاشتراكية الذي تم تناسيه تقريبًا منذ تسعينات القرن الماضي.

تستطيع البراديغمات المعرفية في العلوم الاجتماعية إذن أن تقدم فهمها وتفسيراتها حول العديد من المواضيع، ولكن التغير المستمر الذي يميّز الواقع الاجتماعي يحتم على الباحثين تجديد البيانات الميدانية وتغيير زاوية النظر. لقد أسهم التغير الاجتماعي في تعقيد المسألة الاجتماعية (Castel, 1995) في الجزائر المستقلة، والتي كان الظرف الاستعماري قد أوجد أوضاعها وفاقم من مظاهرها، إذ احتلت المسألة الحضرية ضمنها موقعا مركزيا لارتباطها بالريف وتحولاته (Bessaoud, 2008, p. 367-371). لقد تطلب ظرف ما بعد الاستقلال التحرك بسرعة، والتعامل مع "مشاكل لا تنتظر" وتستوجب معالجتها المرور إلى "الفعل" الذي يقتضي بدوره "القدرة على أخذ خيارات بسيطة وقرارات كبيرة [مصرية] في آن واحد أمام زخم وعداء الأحداث"، وهو ما يعني في نظرنا، الإقبال على "المخاطرة" [Le risque] كما عرفها بول ريكور (Ricoeur, 1941, p. 3).

في هذا الاتجاه، يمكن الإشارة إلى بعض الأدوار التي "لعبها" علم الاجتماع في الجزائر المستقلة في فترة مشاريع التنمية الوطنية خلال سبعينات وثمانينات القرن الماضي، وعلاقاته بالمجتمع، عند مناقشة مقارباته للمسألة الاجتماعية (Remaoun, 2005, Lakjaa, 2004)، حيث ناقش العديد من الباحثين في السياق ذاته المسألة الريفية من زاوية الأزمة التي خلفها الاستعمار في الريف وعلى الزراعة على وجه التحديد، حيث وجد البراديغم الثقافي مرتكزه في كتاب "الاجتثاث: أزمة الزراعة التقليدية في الجزائر"، لبير بورديو وعبد المالك صياد، الصادر في سنة 1964. يدور موضوع هذا المرجع حول تجربة قاسية وشديدة العنف عاشها عدد كبير من الجزائريين (أكثر من مليوني شخص) تمّ حشدهم قسرا وتحويلهم بالقوة من الحقول إلى المحتشدات: [des Champs aux Camps]⁶. لقد ورد في هذا الكتاب أن: "الاستعمار انتزع

⁶ من قبيل الصدفة ربما، أنه ليس هناك فرق بين كلمتي Champs و Camps في اللغة الفرنسية سوى حرف [h] صغير لا يوجد في الكلمة الثانية. لقد أقدمت الإدارة والجيش الفرنسيين على تطبيق سياستهما معتقدين أن ذلك سوف يضعف الثورة التحريرية ويحول

من الفلاح الجزائري أكثر من أرضه، لقد جرّده من شيء لا يمكن استرجاعه عن طريق السحر ولا يمكن منحه إياه عطاءً ليعيد بناء ما سلب منه، بل يجب عليه أن يصنعه من جديد، ألا وهو ثقافته" (Bourdieu & Sayad, 1964, p. 170). وبخصوص مسألة إعادة صناعة الثقافة من جديد، يمكننا الافتراض بأن تجربة الثورة الزراعية والقرى الاشتراكية في الجزائر كانت حالة مدرسية (un cas d'école) (Elaidi, 2021, p. 11)، جسّدت الرغبة [السياسية] في صناعة ثقافة جديدة لدى الفلاحين في المجال الريفي الجزائري، عبر تنمية الأرياف وتجهيزها ليستقر بها الفلاحون "حماية للمدن" من "النزوح الريفي" وآثاره.

ترنو مقاربتنا لهذا الموضوع إلى نقد البراديغم الثقافي وتجاوزه انطلاقاً مما أشار إليه مدني صفر-زيتون بلهجة نقدية (راديكالية) حول الصعوبات التي تعترض الخروج من هيمنة هذا البراديغم على السوسيولوجيا الحضرية في الجزائر، والذي انكبّ على اجترار تحليلات ونتائج ما جاء به كتاب الاجتثاث (Safar-Zitoun, 2008)، إذ يعتبر أنّ هذا البراديغم قد سيطر على الدراسات الحضرية إلى درجة صعب تجاوزه، طالما لا يزال يقدم تفسيرات "جاهزة" حول العديد من الظواهر من منطلق المقاومة الثقافية للتغيير، ومن منطلق أنّ المجتمع الجزائري "محافظ"، وأنّ ثقافته التقليدية-الريفية تمثل عائقاً للتحوّل إلى ثقافة حضرية. لقد دعا مدني صفر-زيتون صراحة إلى تجاوز هذا البراديغم التفسيري من خلال تجديد الدراسات الإمبريقية وإنتاج البيانات الميدانية الجادة (العودة إلى الميدان)، لأنّ استمرار الاعتماد عليه يكرّس، في واقع الأمر، فكرة قصور المجتمع الجزائري عن الخروج من التخلّف وعجزه عن تجاوز

هؤلاء "المحشودين" إلى سكان حضريين في المستقبل. لكن الأثر غير المتوقع هو أن حرف [h] الصغير ذاك كان يرمز في تصور الجزائريين آنذاك إلى حذف حرف ال [H] الكبير في كلمتي "honneur" و "Horma"، الدالة على "النيف" والأنفة والكبرياء ومكانة الأسرة والمرأة الجزائرية، والتي تفقد كل معانيها في غياب حرف ال [H] الكبير هذا.

مستبانه، والتي من بينها الاستعمار، وبالنتيجة الخروج من ظرف الاستعمار⁷ (Berque, 1962, p. 1-15). يقدم البراديجم الثقافي المجتمع الجزائري في صورة جامدة لم تتغير، لأنه لا يعتمد فهما متكاملًا عن الديناميات التي تربط الريف بالمدينة، إذ يختزل العلاقة بينهما في مقولة عامة ترى "عجز سكان الريف عن التكيف مع المدينة واستبطان الحضرية"، وهي عبارة لا تغطي تعقيد العلاقة الموجودة بينهما، وخصوصًا في بعدها التاريخي على وجه التحديد، والذي ينبئ عن دينامية التغير الاجتماعي في الجزائر. تدعو المشاكل التي تطرحها المدينة اليوم إلى تجاوز المقاربات التي تكتفي بتفسير المسألة الحضرية عبر مقولات "النزوح الريفي" و"سطوة عقليات البداوة" أو "جمود التضامانات الميكانيكية"....، والتي تبدو قاصرة عن تفسير الحركية الفعلية التي ينتجها التوسع الحضري داخلها وفي جوارها وفي القرى الاشتراكية الزراعية كذلك.

لقد رسّخ الطرح الثقافي استخدام مفهوم "تريف" المدينة لتفسير وضعية المدينة في الجزائر وديناميات تحوّلها، حتى أنّه اعتبر طرحًا تفسيريًا لتخلّف نموذجها مقارنة بنموذج المدينة في الدول "المتقدمة"، كما استُخدم لتبرير فشل المشاريع التنموية (الثورات الزراعية، والصناعية، والثقافية)، عندما فسّر أسباب فشل التحديث بـ "مقاومة الثقافة المحلية التقليدية" التي تسببت في العجز عن الخروج من ظرف التخلّف نحو ظرف التقدّم.

لقد أنتج هذا البراديجم، الذي تركّز اهتمامه على المدينة والحداثة/التحديث، أو المدينة بوصفها أداة لتحديث المجتمع، خطابًا وصفيا يصنّفها ضمن "وضع حضري غير مكتمل" أو "شبه حضري" أو "حضري

⁷ يمثل الظرف الكولونيالي وما بعده، وعلاقتها بالمجتمع موضوعًا مهمًا في العلوم الاجتماعية، ويمكن في هذا السياق العودة إلى بعض الأعمال مثل: جاك بيرك حول الموضوع، وكتابات هوارى عدي (1995). لا زال الخطاب التعميمي للحس المشترك الذي تسرب إلى الأوساط الجامعية ("الأكاديمية") يصف المجتمع الجزائري بالتخلف والجمود وطابعه المحافظ الصلبد الرفض للتقدم، وبأنه لا يتقدم بل يتراجع أو "يتقدم إلى الوراء". استعمل الهوارى عدي، في هذا الصدد، مصطلح "التراجع الخصب"، في حين اقترح بلخضر مزوار استبداله بمصطلح "التقدم العقيم" [Régression féconde\Progression inféconde] (Mezouar, 2012).

متخلف"....، وهي في مجملها تعبر عن انحياز معرفي [ذي طبيعة نخبوية] يرتب الثقافة الريفية في مرتبة أدنى مقارنة بالثقافة الحضرية.

قد يبدو جليا تَعَسُّر الفهم ناهيك عن التفسير إذا اقتصر التحليل على المسألة الحضرية لوحدها، مع جعلها أهم وأولى من المسألة الريفية، فهما من الناحية العملية يشكّلان بعدا واحدا يستوجب التحليل لمقاربة المسألة الاجتماعية بالجزائر، فما ينتجه التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية يتجاوز الفصل بين الريفي والحضري، لينتج تركيبا يُخفي التّراتب الذي يضع المدينة أوّلا والريف ثانيا، وينأى عن المفاضلة بينهما كذلك، مقترحا مجالات بينية مركّبة [قد تكون انتقالية ربما] تتفاعل بداخلها التصورات السوسيو-مجالية وممارساتها لدى مختلف الفاعلين الاجتماعيين والمؤسّساتيين.

تبقى الإشارة في الأخير إلى أنّ فرضية المجالات المركّبة تطرح إشكالا حول تحديد مفهوم "تريف" المدينة وإعادة صياغته. وإذا كان مفهوم الحضرة، باعتباره ترجمة لمفهوم « urbanisation »، قد نال حظّه من التعريف والشرح والاستخدام، فإنّنا نلاحظ أنّ مفهوم التريف بوصفه ترجمة لمفهوم « rurbanisation » لم يكن له الحظ نفسه من حيث التعريف والشرح على الرغم من استعمالاته في البراديغم الثقافي.

في ضبط مفهوم "التريف" أو إعادة تعريفه

هل يصلح مفهوم "التريف" لمقاربة التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية؟ لا يمكن القفز على هذا السؤال خصوصا إذا كان لمفهوم "التريف" حمولة إيديولوجية أو نخبوية تعتبر الريف مرادفا لمجال متخلف يجب تحديثه من أجل إدماجه في مسار التنمية.

مفهوم التريف هو ترجمة لمفهوم « rurbanisation » من « rurbain » الذي ظهر متأخرا في حقل البحث الفرنسي سنة 1976 على يد جيرار بووور وجان-ميشيل رو في الكتاب الموسوم "التريف أو المدينة المبعثرة" [Gérard Bauer & Jean-Michel Roux]، وهو في أصله توليد لفظي تركيبى بين

مفهومين: ريفي « rural » وحضري « urbain »، يدل على الحضرة الزاحفة على المجالات الريفية التي تتشابك مع المناطق الحضرية الموجودة قبلها. لكن هذا المفهوم المولّد سرعان ما فقد أناقته وتراجع استعماله في القاموس الجغرافي، وحتى السوسيولوجي، بعد أن حجب مصطلح الحضرة المحيطية « périurbanisation » (Berger, Frust, Plet, & Robic, 1980, p. 304)، والذي يدل على ارتفاع ساكنة الأرياف التي عرفت هجرة نحوها من المدن المجاورة، بحيث تتبعثر المدينة أو تتمدد على محيطها الريفي من خلال السكن الفردي⁸ الذي اختاره السكان الحصريون ليكون نمط حياة بديل عن نمط الحياة الحضرية أو المدنية (Bauer & Roux, 1976).

عرف انتقال هذا المفهوم من السياق الغربي إلى السياق العربي تحويرا في دلالاته، بحيث أصبح يشير "عموما" إلى المظاهر السيئة التي خلفها النزوح الريفي نحو المدن في البلدان العربية، إذ يدل على تدهور الوضع العمراني للمدينة أو تقهقره، وكأنه انتكاسة لها أو تشويه لصورته، في حين يرى هنري مندراس أنّ "كلمة مُرْبَيْفَ rurbain تفترض أريفة المدينة فعلا [ruralisation de la ville]، بينما هي تعني في الواقع تبعثر المدينة أو انتشارها على إقليم يفقد صبغته الريفية" (Mendras, 1977, p. 149)، أي أنّ هذه الكلمة تشير في الواقع إلى التغير الحاصل في نمط حياة السكان على وجه التحديد بناء على اختيار العيش في مجالات خارج حدود المدينة⁹ (Mendras, 1977, p. 148).

⁸ المقصود بالسكن الفردي هنا هو l'habitat pavillonnaire الذي يدل في اللغة الفرنسية على مجموع من المنازل المرفقة بحديقة خارجية، يشكل حيا [quartier] أو منطقة سكنية [zone] أو تجمعا سكنيا [lotissement].

⁹ "إنّ ما يعلمنا إياه هذا الكتاب الصغير، هو أنّ هؤلاء المريفين يعلنون أنهم سعداء بالعيش في قراهم الجديدة والخلّاص من المدينة، وهذا مع مواصلة العيش مع المدينة التي غادروها دون علاقة مع الريفيين المجاورين (في مدينة نيم مثلا)، أو على العكس، أنهم يعتبرون أنفسهم ريفيين يبحثون بأيّ ثمن عن الاندماج في القرية القديمة من أجل إحيائها. مثلما حدث في سهل فيرساي مثلا" (Mendras, 1977, p. 148).

يدعونا هذا التفصيل إلى إعادة النظر في دلالات مفهوم التريف الذي يستعمل في الأطروحات والمقالات العلمية، ويُستعان به في الخطاب الصحفي والإعلامي، وفي مواقع التواصل الاجتماعي لوصف "آلام المدينة" في الجزائر. تُظهر الملاحظة¹⁰ استدعاء مفهوم التريف بوصفه "نظرية شهيرة" لتفسير "عالم" الآلام المدينة، إذ يتمّ تقديمها تحت غطاء مفاهيمي مستقيم [مقبول] سياسيا، يخفي في جوهره الطرح الذي يرى في النزوح الريفي مصدرا لكل ما أصاب المدينة من شرور، وهو ما أدى إلى فقدان "نموذج" قوي للتمدّن والتحضرّ كان حكرا على "المدينين الحقيقيين" العارفين بقواعد العيش في المدينة، يضاف إليها كل ما يتصل بذلك من أساطير راسخة مطمورة في اللاشعور الجمعي، عن "عصر ذهبي" للحضريّة العاصمة (على وجه الخصوص) (Safar-Zitoun, 2009, p. 33).

إنّ التعريف الإجرائي لمفهوم التريف الذي نأخذ به في هذه الورقة، يتلخّص فيما يلي: التريف في القرية الاشتراكية الزراعية هو عملية حضرنة تدريجية طويلة الأمد، وحين يتم تجريده من حمولته الإيديولوجية، فإنّه يعبر عن سيّرة طبيعية للتوسّع الحضري للمجال الريفي، باعتباره استجابة لآليات التغيّر الاجتماعي التي تعتمل داخل المجتمع ككل، لذا فهو حالة توفيق بين منطق العمران من فوق ومنطق العمران من الأسفل (بلقيدوم، 2021، ص. 10).

المقاربة المنهجية لموضوع البحث

تنطلق هذه الدراسة من فرضية ترى أنّ ديناميكية التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية، بوصفها مجالا وسيطا أو انتقاليا بين الريف والمدينة، تقدّم أمثلة عن مجالات مادية واجتماعية مركّبة تتشكل يوميا وتتحوّل ضمن شدّ وجذب متبادل بين الريفي والحضري بوصفهما "نمطي حياة" يتعايشان في مجال تُصنّع فيه مدينة اليوم، ويُعادّ تحديد معالمها باستمرار،

¹⁰ والحال نفسه بخصوص مدينة الجزائر العاصمة حسب مدني صفر زيتون (Safar-Zitoun, 2009).

فعلى حد تعبير الطبيب براهيم علي: "الأربعون عاما التي مضت، سمحت لتجربة القرى الاشتراكية أن تأخذ كل الوقت لتصبح على ما هي عليه الآن، وتنتج وضعاً مخالفاً لما كانت عليه. جزء من الماضي يستمر في الحاضر ويستجيب لمتطلباته" (الطبيب براهيم، 2021، ص. 82).

نتوخى من خلال هذا الإسهام طرح المسألة الريفية-الحضرية باعتبارها ثنائية غير قابلة للفصل، ونسعى للمضي قدماً في فهم منطق التوسّع الحضري الذي تغيرت على أساسه القرى الاشتراكية من حيث الشكل والبنى الاجتماعية، وبتعبير آخر، نسعى لفهم مجالات تواجد "ما بعد الريف" و"ما قبل المدينة" دون أفضلية قيمية بينهما.

وفي سبيل ذلك، وللإجابة على ما طرحه هذه الورقة من تساؤل، حاولنا الربط بين ملاحظات تحقيقين ميدانيين¹¹:

- أجري الأول، بوصفه تحقيقاً استطلاعياً، في إطار مشروع بحث-مؤسساتي لمركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC) (2016-2019)، المعنون بـ: "الحضرية الريفية، بخصوص تطوّر القرى الاشتراكية"، اشتغل فيه المؤلف الأول عضواً في فريق البحث على إشكالية: "علاقات الجوار والاجتماع البشري في القرى الاشتراكية بين الماضي والحاضر"، وقد جرى هذا التحقيق في سنة 2017، وتمّ خلاله تطبيق تقنية الملاحظة المباشرة مع إجراء مقابلات بؤرية-رفقة فريق البحث-مع مجموعة من سكان القرى الاشتراكية الثلاث المختارة في مشروع البحث¹².

¹¹ ولأن المقاربة المنهجية في كلا الميدانين كانت كيفية، ولم يكن التوسع الحضري محورياً أساسياً ضمن محاور المقابلات الحرة ونصف الموجهة، فإنه يلاحظ غياب الإحصائيات عن عدد السكان والتجهيزات المرفقة بالمشروع... فالأرقام التي بحوزتنا ليست رسمية، بل وردت في سياق المقابلات البؤرية في تصريحات المبحوثين [بشكل ظني ومتعارض أحياناً].

¹² شمل التحقيق ثلاث قرى اشتراكية: قرية فلاوسن بوهران، قرية أوراس المائدة بعين تموشنت، وقرية بلعسل بغليزان. زيادة على المقابلات البؤرية، أجرينا خمس مقابلات حرة مع: مبحوث، قدم نفسه على أنه عين من طرف الرئيس هوارى بومدين كمسؤول عن تسيير القرية الاشتراكية أوراس المائدة زمن تدشينها سنة 1975؛ ومقابلتين مع مبحوثين في قرية

• أما التحقيق الثاني فقد تمّ بالشراكة مع الباحثين المشاركين في هذه الورقة، خصّ القرية الاشتراكية "8 ماي 1945"، ببلدية سوق الاثنين (ولاية بجاية)، وتضمّن تسع مقابلات، ثم تطوّر هذا التعاون بين مؤلفي هذه الورقة البحثية من خلال توسيع التحقيق الميداني في أواخر ديسمبر 2023، اعتمادا على الملاحظة السوسولوجية المباشرة وإجراء مقابلات مفتوحة مع بعض الساكنة حول تجربتهم الماضية في هذه القرية وكيفية تعاملهم مع تحولاتها. تمّ تدعيم الدراسة الميدانية بإجراء خمس مقابلات شبه موجهة مع مبحوثين تمّ اختيارهم عينة قصدية للإجابة على التساؤلات التي انبثقت من تحليل المقابلات التسع الأولى، كما أجرينا مقابلة مطوّلة مع إطار متقاعد من مصالح الإدارة المحلية) بلدية سوق الاثنين)، عايش مشروع بناء وتسليم وإعمار القرية منذ تدشينها في مارس 1976.

بالنظر إلى صعوبة الخروج من الطرح الثقافي المهيمن على حد تعبير مدني صفر زيتون (Safar-Zitoun, 2008)، وبالنظر كذلك إلى الصعوبات التي تواجه الجمع بين تخصصات مختلفة، فقد لا يكون كافيا ما تمّ استنباطه من محتوى المقابلات والملاحظات التي جمعت في التحقيقين الميدانيين لقراءة مسألة التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية المدروسة منذ تأسيسها في سبعينات القرن الماضي، ولكننا نسعى أن نبيّن أنّ مسارات الحضنة والتريف تتقاطع فيما بينها و تنتج مجال القرية الاشتراكية الزراعية اليوم، بحيث تتبادل التأثير مع المدينة، حسب المسافة المجالية بينهما، وتتأثر إحداها بالأخرى بقدر ما عرفاه من توسّع حضري، وتبعا لمدى استفادة كل منهما من مشروع التنمية الوطنية بكل القطائع [les ruptures] التي عرفها منذ بداية السبعينات من القرن الماضي¹³.

أوراس المائدة، ومقابلتين آخرين مع مبحوثين في قرية بلعسل. كان معيار اختيار هؤلاء هو اهتمامهم بمحور بحثنا خلال المقابلات البؤرية.

¹³ يمكن أن نلاحظ عموما أن مشروع التنمية الوطنية عرف منعرجات بارزة كل عشر سنوات تقريبا منذ سنة 1969. منعرجات تميزت بتغير رؤساء الجمهورية وتعديل دستور البلاد تماشيا مع مستجدات أفرزتها الضرورات السياسية أو الأزمة الاقتصادية أو الحراك الاجتماعي.

يمكن قراءة أنماط التوسع في القرى محل الدراسة من خلال نموذجين اثنين نلخصهما فيما يلي:

نموذج الحضنة المدمجة نحو الخارج

ونقصد به النموذج الذي عرفت فيه القرية الاشتراكية توسعا حضريا انطلاقا من نقطة نواة نحو مجالات أخرى، متخذة مسارات مخططة، وغير مخططة، جعلتها (أي النواة) تتوسع لتندمج في النسيج الحضري الموجود قبلا، أو تتشكل تدريجيا باعتبارها مجالا في طور التحول إلى مدينة في عمرانها وتجهيزها وديناميكيتها.

ينطبق هذا النموذج على حالة قرية فلاوسن بولاية وهران (Nemouchi, 2025)، حيث عرفت هذه الأخيرة، والتي تقع على ساحل ولاية وهران، ببلدية بوسفر، وتمّ تدشينها سنة 1978، "ثلاثة أعمار" (Sayad, 1977)¹⁴. يبدأ العمر الأول مع بناء 220 وحدة سكنية المشكلة للقرية (النواة الأولى) أواخر سبعينات القرن الماضي، ويبدأ العمر الثاني مع تشييد العمارات من طرف ديوان الترقية والتسيير العقاري بوهران (OPGI) مع نهاية ثمانينات القرن الماضي، أما العمر الثالث فمرتبط بـ"الحي العشوائي"، الذي بناه

منعرج أول في سنة 1979، بعد وفاة الرئيس هواري بومدين أواخر 1978، منعرج ثان سنة 1989، بعد أحداث أكتوبر 1988 وتعديل الدستور في فبراير 1989 الذي أقر التعددية الحزبية، منعرج ثالث سنة 1999، مع وصول الرئيس عبد العزيز بوتفليقة إلى الحكم وبداية تخطي ما سمي "العشرية السوداء"؛ منعرج رابع سنة 2009، بعد فتح العهودات الرئاسية لاستمرار حكم بوتفليقة، ومنعرج خامس سنة 2019، مع حراك فبراير 2019.

¹⁴ حسب التوصيف الذي قدّمه عبد المالك صياد عن الهجرة الجزائرية نحو فرنسا. وللأمانة العلمية، نحن قمنا باستعارة تسميات الأعمار التي حددها عبد المالك صياد في مقاله للمراحل المفصلية في تاريخ هجرة الجزائريين نحو فرنسا: 1) « l'émigration par ordre » : 2) « la perte de contrôle » و 3) « une colonie algérienne en France ». جاء استعمال هذه التسميات في هذه الورقة استعارة فقط من أجل تبيان مراحل توسع القرية الاشتراكية فلاوسن، بولاية وهران، وليس القصد بها تشبيه الهجرة نحو فرنسا بالهجرة نحو القرى الاشتراكية، فليس المقام مناسباً لإطلاقاً للمقارنة بينهما.

النازحون خلال سنوات التسعينات من القرن نفسه على أطراف وادي بوسفر خلف عمارات ديوان الترقية العقارية (Marhoum & Souiah, 2019, p. 110). يوافق العمر الأول "الهجرة بأمر"، إذ تلقى السكان الأوائل من بلدية بوسفر "أمرا بالترحيل" لإعمار القرية الجديدة. لكن، وفقا لتصريحات محاورينا من السكان الأوائل فإنّ "بعضا من المهجّرين لم يكن يرغب في ذلك حقّا"، حيث فضّل العديد منهم ترك المسكن الممنوح لهم (مجانا) ليعودوا إلى منازلهم السابقة في التجمع الرئيسي لبلدية بوسفر أو بالقرب منه، بحجّة ضيق المساكن وعدم ملائمتها لعدد أفراد أسرهم، وصعوبة التكيف مع متطلبات المساكن الجديدة وتصميمها. وتبعا لموجات العودة هذه، استدعى بعض السكان (المستقرون هناك) بعضا من أقاربهم من الأسرة الموسّعة، من أجل شغل المساكن الشاغرة.

يشكّل هذا المعطى بداية للعمر الثاني المرتبط بفكرة "فقدان السيطرة"، مع تناوب موجات المغادرة والوصول لأسر ذات ثقافات مختلفة، قادمة من أماكن بعيدة عن القرية، وحتى من ولايات أخرى مثل معسكر، وتيارت، والبيض....، حيث نتابع تغيير التركيبة الأولى لسكان القرية، ومعها نشهد تغييرا في التصوّرات والممارسات والمهن والاهتمامات. يتوافق هذا العمر في نهايته مع مرحلة تراجع الدولة التدريجي عن طابع "طوعية الدولة" (le volontarisme étatique)، بسبب إكراهات الأزمة الاقتصادية والأمنية خلال بداية تسعينات القرن الماضي، حيث بدأ التوجه نحو نوع من المرونة¹⁵ (Côte, 2002, p. 299-315)، أسهم في بناء مساكن تابعة لديوان الترقية والتسيير العقاري (OPGI)، وأخرى تابعة للوكالة العقارية تدخل في إطار توسيع القرية لتحضن سكانا من "الفئة المهنية المتوسطة" من الموظفين في قطاع الوظيفة العمومي (التعليم، الصحة

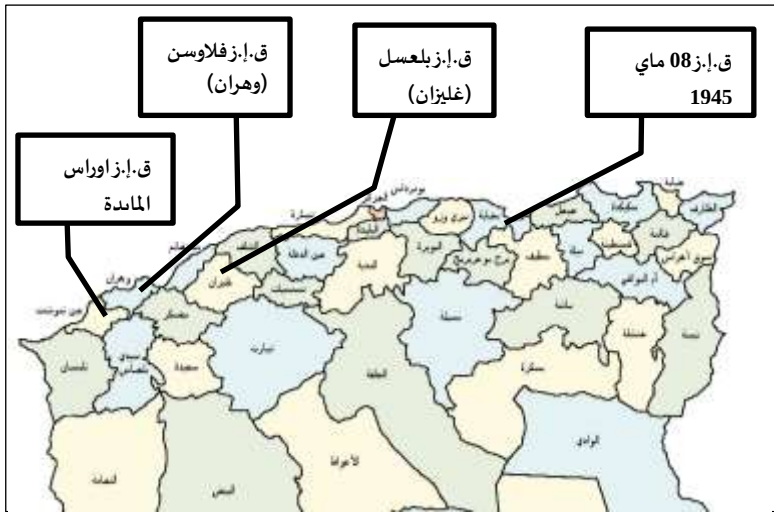
¹⁵ عبر مارك كوت عن هذا بما يلي: "لم يعد هناك توجه نحو تحويل الأرياف إلى مدن، بل نحو تأطير الأرياف بطريقة مغايرة، حيث يتم وضع المدينة في متناول سكان الأرياف من خلال شق الطرق الريفية وتوفير وسائل النقل، من أجل تقرب خدمات المدينة من سكان القرى مع بقائهم في قراهم". (1996)، ص. 253.

والإدارة المحلية) [حي 230 مسكن نصف جماعي سنة 1997، وحي 250 مسكن جماعي بداية سنوات 2000 ل OPGI. 141 مسكن اجتماعي و10 مساكن اجتماعية ترقية للوكالة العقارية (Nemouchi, 2025, p. 11)] يبدأ العمر الثالث مع اشتداد وطأة الأزمة الأمنية في تسعينات القرن الماضي، من خلال ظهور مبادرات فردية [ميلاد الحي العشوائي] لبناء مساكن بأدنى ما توفر من مواد (الحجارة والطين وصفائح الزنك) على أطراف وادي بوسفر، على هامش التجمع السكني الذي يحتوي آنذاك على القرية بوصفها نواة وعمارات السكن الجماعي المبنية من طرف ديوان الترقية والتسيير العقاري (OPGI). جاءت هذه المبادرات لتحضن أسرا نازحة بسبب أزمة السكن والهم الأمني، حيث توافرت آنذاك فرص عمل في قطاعات البناء والأشغال العمومية والسياحة. يشبه ميلاد الحي العشوائي "مستعمرة حقيقية" (une variee colonie بتعبير عبد المالك صياد) من السكان المحتاجين للسكن، أصولهم من بلدية بوسفر، ومن بلديات وهران الأخرى، استوطنوا بطريقة "غير مشروعة" وخارج القانون في مساكن عارضة، وغير صحية على أطراف وادي بوسفر بالقرب من الإنشاءات الرسمية لفترتي السبعينات والثمانينات¹⁶.

¹⁶ نشر بعض من أفكار هذا العنصر في فريد مرحوم ومهدي سويح في كتاب: *L'Algérie au présent. Entre résistance et changement* تحت إشراف كريمة ديرش أبريل (2019).

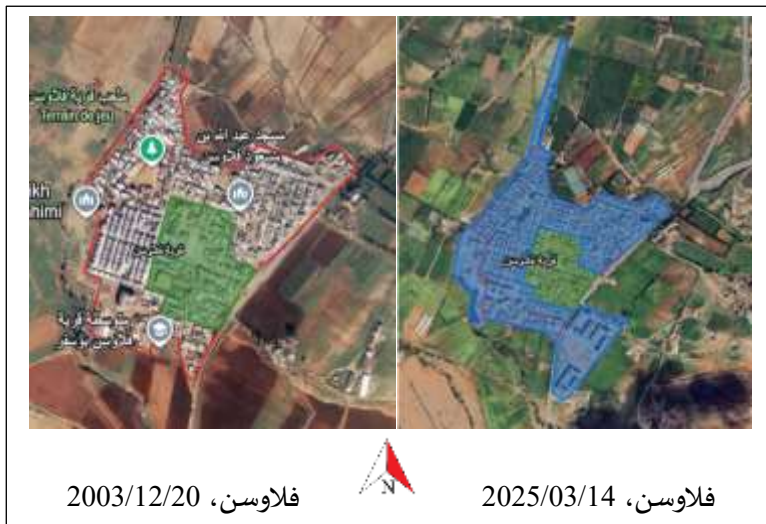
التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية بالجزائر: ...

صورة 1: مواقع القرى الاشتراكية محل الدراسة على خريطة الجزائر



المصدر: <https://www.marefa.org/w/images/e/ef/Algeria-wilayas-ar.png> معدلة من طرف المؤلفين.

صورة 2: توسع قرية فلاوسن بين 2003 و 2025



المصدر: تطبيق Google Earth، معدل من طرف الباحثين (2025).

صورة 3: مساكن حي 250 مسكن) بنايات OPGI) [العمر الثاني] في القرية
الاشتراكية فلاوسن) وهران)، 2010



المصدر: (Nemouchi, 2025).

ينطبق هذا النموذج أيضا على "قرية 8 ماي" 1945 بولاية بجاية، حيث أنّها بنيت على أطراف النسيج الحضري السابق، وكأَنَّها حي-ضاحية، ثمّ توسّعت تدريجيا بمعية النسيج الحضري المجاور لها، لتختفي معالمها مع التعديلات والتحويلات التي أجراها شاغلوها على المساكن من خلال إعادة التهيئة أو الهدم وإعادة التشييد.

اختبر السكان المرحّلون إلى هذه القرية تجربتين فريدتين من نوعهما بالنسبة لهم: تجربة السكن في نمط جديد ومختلف، وتجربة العيش غريبا بجوار الغرباء. تحيلنا كلا التجربتين على مفهوم السَّكْنَى (l'habiter)، من حيث كونها "محاولات الساكن لأنسنة مجال السكن وجعله مقبولا لذلك، بحيث يجمع بين بعدين مهمين هما العلاقة مع الأشياء ثم العلاقة مع الأشخاص" (Bousbaci, 2009, p. 22-26).

لقد تمّ نقل السكّان من الجبل ومن مساكنهم التي بنوها بأيديهم (المنزل القبائلي) إلى مساكن القرية الزراعية الاشتراكية، فيما يشبه عملية اجتثاث وإعادة غرس في بيئة (تربة) مختلفة، وبالنسبة لمحاورنا في المقابلة المطوّلة:

التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية بالجزائر: ...

"لا عجب إذاً، ألا يتقبل الناس ذلك، ولا عجب أنّ الكثيرين منهم عادوا إلى مسقط رأسهم في الجبل، لأنهم أحسوا بالغربة والاغتراب... لقد تشكل لديهم إحساس بأن المساكن الممنوحة لهم في القرية الاشتراكية تسلبهم هويتهم أو جزءاً منها، وهم العالقة في ذاكرتهم فظائع الاستعمار وآلام الحرب التحريرية" (رجل، سبعيني، متقاعد من مصالح الإدارة المحلية).

إن إعادة إسكان ساكنة الجبل (لأنّها بالفعل إعادة إسكان) في القرية تعادل تعريضهم لـ"الآثار الطبيعية لإعادة الإسكان" (Sayad, 1980) من ناحية، وإجبارهم على العيش في وضع يرى كل ساكن فيه نفسه غريباً، يعيش إلى جانب غرباء من ناحية أخرى. فما حدث من تعديل وإعادة تهيئة لمساكن القرى الاشتراكية الزراعية يتفق مع فكرة أنّ: "إعادة ترتيب الفضاء [السكني] تعبّر عن الرغبة في جعله صالحاً للسكن، بوصفه سمة أساسية للوجود، حيث تتحقق الحالة الإنسانية، أي الوجود الأصيل للإنسان" (Hadjidj, 2002, p. 19).

صورة 4: توسّع قرية 8 ماي 1945 بين 2007 و2024



المصدر: تطبيق Google Earth، معدل من طرف الباحثين (2025).

تختلف مساكن القرية الزراعية الاشتراكية عن خصوصيات السكن في البيئة الجبلية، من حيث كونها تمثل تجمعا بني على أرض منبسطة، على شكل مخطط منتظم، تتخلله طرقات وشوارع تتقاطع بشكل متعامد، وتصطف منشآتها على طول طرق رئيسية، تربطها بباقي النسيج الحضري. لقد أحسن السكّان في البداية باختلاف الفضاء الجديد عن خصوصيات العالم الريفي السابق، ويمكن القول أنّ القطيعة كانت مزدوجة لكونها قطيعة مع فضاء سكاني (الجبل)، وأخرى مع أشخاص من "زمن مضى" بقي محفورا في ذاكرتهم ومخيالهم الاجتماعي.

نموذج الحضنة المنبعثة من الداخل

ونقصد به التوسّع الحضري من داخل القرية الاشتراكية على أطرافها القريبة من أراضي فلاحية، والذي تم بشكل تدريجي وأبطء مقارنة بالنموذج الأول، حيث يشبه الانفجار الداخلي [une implosion] دون أن تصل إلى حدود المدن المجاورة البعيدة عنها نسبيا.

ينطبق هذا النموذج على قرية بلعسل التابعة لولاية غليزان (ريعي ولقجع، 2018، ص. 43)، التي توسّعت من خلال السكن الفردي المخطط وغير المخطط، وتمت تسوية وضعية أغلب سكّانته لاحقا. لا تزال هذه القرية أقرب للريف منها للمدينة، حيث يثير انتباهنا مسألة إعادة إنتاج المجتمع القروي بفعل تواجد سكّانها أمام تحدي التعارض بين "الفلاح وغير الفلاح"، والذي بدأت ملامحه تظهر في قلب مجتمع القرية تبعا لنوع المهن وطبيعتها، حيث يرى الفلاحون أنّهم السكان الأصليون، ويصفون غيرهم بالوافدين لأنّهم لا يشتغلون في الفلاحة، وهو ما انبثق عنه لاحقا جيلان مختلفان: جيل أبناء الفلاحين، وجيل الأبناء غير الفلاحين.

التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية الزراعية بالجزائر: ...

صورة 5: قرية بلعسل بين 2004 و 2025



المصدر: تطبيق Google Earth، معدل من طرف الباحثين (2025).

صورة 6: مسكن في قرية بلعسل الاشتراكية (غليزان)، 2017

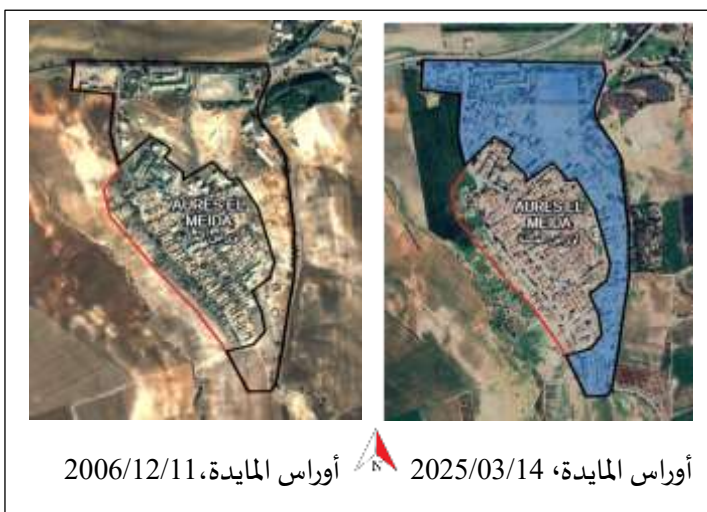


المصدر: نجاة موعزيز-بوشنتوف، مشروع البحث: "الحضرية الريفية، بخصوص تطور القرى الاشتراكية" 2017.

تشير هذه الوضعية إلى عملية الانفصال بين "كيانين اجتماعيين، أين يتميز السكان حسب المهنة (الفلاحون/المزارعون/المهنة الأخرى)، وتبتعد القرية شيئاً فشيئاً عن ماضيها الفلاحي، حيث تحجب واجهات المدينة [المخيلية] ماضي الفلاحين" (Bourdieu, 2002, p. 90).

ينطبق هذا النموذج كذلك على قرية أوراس المائدة بولاية عين تموشنت التي توسّعت من الداخل من خلال مبادرات البناء الذاتي في ثمانينات القرن الماضي وبرنامج السكن الريفي في سنوات الألفين. حافظت هذه القرية على معالمها العامة ولم تعرف توسّعا معتبرا. الملفت للانتباه هو أنّ هذه القرية تتميز بنوع من الانضباط، يمارسه أحد السكان يقدم نفسه على أنّه المسؤول المعين من طرف الرئيس هواري بومدين لتسيير شؤونها يوم تدشينها سنة 1975. نفترض أنّ لهذا الشخص تأثيرا رمزيا على طريقة توسّع القرية، حيث أنّ أغلب المساكن حافظت على تصميمها الأول مع تعديلات طفيفة، أمّا ما بني من مساكن جديدة، فقد تمّ في إطار رسمي عبر برنامجي البناء الذاتي والبناء الريفي، والتي تظهر أنّ هذا الشخص كان يلعب دور الوسيط من خلال مكانته الرمزية في تمثيل سكان هذه القرية أمام السلطات المحلية.

صورة 7: توسع قرية أوراس المائدة بين 2006 و 2025



المصدر: تطبيق Google Earth، معدل من طرف الباحثين (2025).

لقد وقفنا في قرية أوراس المائدة على ثنائية التأثير/المقاومة بين المجال الحضري والمجال الريفي، أين يمتد تأثير المدينة على مستوى التصوّرات

والممارسات بحيث يمسّ "ضرورات" التنقل من القرية إلى المدينة بوصفها مؤشرا على اعتبار القرية "هامشا" مهملا في تمثيلات السكان¹⁷، كما تظهر مشكلة أخرى مزدوجة الجانب، إذ يعجز السكان الأوائل من جيل الآباء عن نقل نمط حياتهم وممارساتهم باعتبارهم فلاحين إلى جيل الأبناء، ومن جهتهم، يرفض الأبناء إعادة إنتاج نمط الحياة نفسه لدى آبائهم، وبدرجة أقل نمط حياة أجدادهم الذي غالبا ما يُشار إليه بشكل سلبي لكونه رمزا للفقر والشقاء والحرمان.

حتى وإن فقدت هذه القرى الاشتراكية، بوصفها مجالا سكنيا، بعضا من معالمها وجاذبيتها بسبب الحضرة الجارية داخل حدودها وخارجها، وكذا افتقارها لمشاريع تنموية كان يمكن أن تغير وضعها اليوم، فإنّها تظل حاضرة بصورتين مختلفتين بين الجيل الأول والجيل الثاني من السكان: ذكريات وحنين إلى زمن التعايش "الجميل" على الرغم من الظروف الصعبة للآباء: "الكسرة والماء، والرأس ف السّما"¹⁸، وطموح يحمله جيل الأبناء يميزه الشعور بالخذلان والحرمان أو الإهمال من طرف الدولة التي كان يجدر بها أن تحوّل قراهم إلى مدن حقيقية: "لا شيء هنا، الحياة موجودة هناك خلف الجبل" (مشيرا بيده في اتجاه مدينة مستغانم).

قد نصل في نهاية هذا التحليل إلى أنّ نمطي التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية، موضوع هذه الورقة، لا يصلان إلى مستوى التشكّل كنمطين نقيضين، بل يتواجدان معا، بأشكال ظاهرة وباطنة، ويسمحان بنفاذ المدينة إلى القرية، كما يسمحان للقرية بالنفاذ إلى المدينة، فهما وضع هجين يربط بين

¹⁷ إذ أن تعميم الثورة الزراعية في الريف، وتعميم المشاريع التصنيعية في المدن، أسهم في إخضاع السكان "الريفيين" إلى جاذبية المدينة وما تحتويه من مظاهر الحضرة. يتعلق الأمر بالأساس بالتفاوت في حجم التنمية، الذي عرفته المدن من خلال التصنيع والتعمير، والمدرّة لمناصب الشغل، مقارنة بالقرى (الأرياف) التي أريد لها أن تحتفظ بقطاع واحد هو الفلاحة. يعرف سكان الريف في مخيالهم المثل الشعبي القائل: "يوجد في القرية رزق واحد (الفلاحة)، ويوجد 99 المتبقية في المدينة".

¹⁸ قول مأثور بالدارجة الجزائرية معناه: "نكتفي بالخبز والماء حتى تبقى رؤوسنا شامخة في السماء" تعبيرا عن الأنفة والكبرياء.

الماضي والحاضر، بين التريف والحضرنة، حيث ينتقي الفاعلون بعقلانيتهم المحدودة (Quinet, 1994) من التقاليد ما يتوافق مع مظاهر الحداثة، وينتقون من هذه الأخيرة ما لا يتنافى مع التقاليد. وإذا كانت هناك حضرية قد بدأت في البزوغ في تسعينات القرن الماضي حسب عبد القادر لقجع (Lakjaâ, 1997)، فإنّها في واقع القرى الاشتراكية الزراعية تعبر عن حضرية مركبة، تجمع بين الريف والمدينة، ويمكن نعتها حضرية ريفية أو ريفية حضرية.

خاتمة

تحيلنا إشكالية التوسّع الحضري للقرى الزراعية الاشتراكية إلى بعض الاستنتاجات حول سيرورتها التاريخية، إذ تشير إلى أنّ الحضري والريفي يشكلان طرفي معادلة واحدة حيث يفترض الاجتثاث فيها إعادة التجذر. فالاجتثاث ليس بداية الدورة، بل هو مرحلة ثانية، أتت بعد وضعية سابقة للتجذر في المجال السكاني، بنيت على أساس مفهوم "السكّنى" (l'habiter)، حيث يربط الساكن نفسه بالأشياء (البيئة) والجماعة أو بالأشخاص الذين يتشاطر معهم المجال نفسه والعادات والقيم والمعارف نفسها...

تثير سيرورة التوسّع الحضري في القرى الاشتراكية مسائل أخرى لا تقل أهمية عن مسألة الاجتثاث وإعادة التجذر، كالحق في المدينة وحقوق المواطنة ومسارات التنمية، كما تثير كذلك مسائل الاستبعاد الاجتماعي وتمايز الشرائح الاجتماعية، وتطرح بشكل مغاير مسألة إعادة إنتاج المجتمع في الريف كما في المدينة بعد القطيعة التي يحدثها التهجير والترحيل وإعادة الإسكان، كما تحيل في جزء منها إلى "المسألة الجيلية" التي يمكن من خلالها فهم المسألة الاجتماعية وتحولات الرابط الاجتماعي في المجتمع الجزائري اليوم.

لقد أدى التوسّع الحضري الحاصل في القرى الاشتراكية إلى ظهور تباينات عديدة على المستويين المجالي والاجتماعي، جعلت منها وضعا غامضا، يحتكم إلى منطق التراكم أكثر من خضوعه إلى منطق التغيير بشكله الثوري، فلا يمكن الجزم أنّ المدن قد "تريفت"، كما لا يمكن القول بأن القرى قد "تحضرنت"،

ولكن، مع ذلك، يمارس سكانها قدرتهم على "الانتقاء العقلاني" بين رمزيات التقاليد ورفاهية مظاهر الحداثة ومنتجاتها، لرغبتهم في الجمع بين محاسن المدينة ومحاسن الريف في آن واحد حيثما كانوا يسكنون، كونهم مصدر التركيب بين الريف والمدينة.

المراجع

- براهيم علي الطيب، (2021). مساكن القرى الاشتراكية الزراعية :ماذا بعد أكثر من أربعين سنة؟ إنسانيات، (94)، 63-89.
- بلقيدوم سعيد، (2021). تقديم. إنسانيات، (92)، 7-11.
- ربيعة سمير ولقجع عبد القادر، (2018). سيرورة الأقلمة والانتماءات القبلية في بلدية سيدي خطاب ولاية غليزان. إنسانيات، (79)، 31-51.
- الكنز علي، (2001). من الإعجاب بالدولة إلى اكتشاف الممارسة الاجتماعية. في سعيد بن سعيد العلوي وآخرون، المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية، ط. 2، ص. 211-226 مركز دراسات الوحدة العربية.
- مرحوم فريد، (2018). أحداث أكتوبر 1988 والمجتمع المدني في الجزائر: بحث في سوسيولوجيا الشباب وأنتروبولوجيا الغضب. آفاق علمية، 10(2)، 199-218.